ما نعرفه انه اثناء الجنازة وخوفاً من ان يرتكب عملا عنيفاً تجاه نفسه رافقه أخوه يوري وابن عمه فلاديمير وذكره المتروبوليت بأن على المسيحي الا يقف من النكبة موقف اليأس . ونحن نجد التفسير الرئيسي لحالته العقلية في هذا الظرف في أن القيصر انصرف بعد المأتم الى الشراب، ولم يمض أسبوع واحد على الحادث إلا وكانت له عشيقة بين ذراعيه .. « فبعد موت القيصرة بدأ القيصر في أن يصبح همجياً ونزاعاً الى الفحشاء » كما وصفه احد كتاب العصر (١) .

طبعاً كانت الحاشية كلها تذرف الدموع ولم يكن ثمة إلا تعاز وأحزان ووجوه كالحة . ولكن ما أن تغير مزاج القيصر حتى وضع البويار جانباً حزناً لم يشعروا به قط . فقد كانت اناستاسيا صديقة لشعب موسكو الفقير الذي حزن على موتها حزناً صادقاً . كانت نقية جداً وفاضلة جداً بحيث لم يكن بإمكان طباعها تلك ان ترضي البلاط . وأقاربها آل زاخارين كانوا محدثي نعمة في أعين النبلاء بالوراثة . وكان القيصر قد احتفظ بضغائنه على سيلفستر وارداتشيف فكان يدعو هذا بالكلب وذاك بالمنافق . ولم يكن من الصعب أن تصل الى آذانه دمدمات وهو سكران بأنهما لا بد قد استعملا السحر ليبدوا في عيني جلالته لا غنى عنهما كل هذا الزمن الطويل » .

في اثناء مرض القيصرة كان القيصر قد قاطع سيلفستر الذي قدم بركاته لإيفان وانسحب الى الصحراء في دير يقع على بعد بضع مئات من الكيلو مترات من موسكو ولكنه قريب مع ذلك ويساعد على الرجوع السريع فيما لو رضي القيصر عنه . فهل صلى هناك من أجل شفاء اناستاسيا ؟ إذن لكان ذلك عظيم الفائدة له . فلو انه كان يقدر النفوذ الذي كان يتمتع به على ضمير القيصر وإرادته لكان من المهم جداً بالنسبة له أن تتماثل القيصرة للشفاء . اما انه أراد بها الشر فيما مضى وفضل إقالة ولي

---

(١) مخطوطات سينود Synode رقم ٣٦٤ .